خـان الخليـلى

سيد قطب

هذه هى القصة الثالثة للمؤلف الشاب، سبقتها قصة رادوبيس وقصة كفاح طيبة وكلتاهما قصتان، معجبتان، مستلهمتان، من التاريخ المصرى القديم.

ولكن هذه القصة الثالثة هى التى تستحق أن تفرد لها صفحة خاصة فى سجل القصة المصرية الحديثة، فهى منتزعة من صميم البيئة المصرية فى العصر الحاضر، وهى ترسم فى صدق ودقة، وفى بساطة وعمق، صورة حية لفترة من فترات التاريخ المعاصر، فترة الحرب الأخيرة، بغاراتها ومخاوفها، وبأفكارها وملابساتها، ولا ينقص من دقة هذه الصورة وعمقها أنها جاءت فى القصة إطارا لحوادثها الرئيسية، وبيئة عاشت القصة فيها.

ولكن هذا كله ليس هو الذى يقتضى الناقد أن يفرد لهذه القصة صفحة متميزة فى فصل القصة المصرية الحديثة.

إنما تستحق هذه الصفحة، لأنها تسجل خطوة حاسمة فى طريقنا إلى أدب قومى واضح السمات متميز المعالم، ذى روح مصرية خالصة من تأثير الشوائب الأجنبية ـ مع انتفاعـه بهـا ـ نستطيع أن نقدمـه ـ مع قوميتـه الخاصة ـ على المائدة العالمية. فلا يدغم فيها، ولا يفقد طابعه وعنوانه، فى الوقت الذى يؤدى رسالته الإنسانية، ويحمل الطابع الإنسانى العام، ويساير نظائره فى الآداب الأخرى.

وهذه الظاهرة حديثة العهد فى الأدب المصرى المعاصر، لم تبرز وتتضح إلا فى أعمال قليلة من بين الكثرة الغالبة لأعمال الأدباء المصريين. وهى فى هذه القصة أشد بروزا وأكثرا وضوحًا. فمن واجب النقد إذن أن يسجل هذه الخطوة ويزكيها.

وبعد، فلا بد أن أضع أمام القارئ ملخصا للقصة يعينه على تتبع السمات الفنية فيها، ويشركه معى فى تحليل هذه السمات. ولكن القصة بالذات من الأعمال الفنية التى لا سبيل إلى تلخيصها، وحين تلخص تبدو هيكلا عظميًا خاليًا من الملامح والقسمات التى تحدد الشخصية، وتبرز مواضع الجمال والقبح فيها.. فلا مفر إذن من الحديث العام عن القصة دون الدخول فى التفصيلات إلا بمقدار.

ليس فى القصة كلها صخب ولا بريق.. إنها خلو من الالتماعات الذهنية والأفكار. ليس فيها لافتة واحدة من اللافتات التى تستوقف النظر. ومحيطها ذاته محيط عادى. وأحداثها وحوادثها مما يقع كل يوم فى أوساطنا المصرية العادية. اللهم إلا تلك الغارات الجوية التى روعت بعض المدن فى زمن الحرب. والتى روعت أسرة «أحمد أفندى عاكف» فأزعجتها عن حى السكاكينى الذى استوطنته زمنا طويلا، إلى الحى الحسينى وخان الخليلى، لتكون فى منجاة من الغارات، فى حمى ابن بنت رسول الله!

ولقد كان «أحمد عاكف» وهو يحمل عبء الأسرة بمرتبه الصغير ـ إذ هو موظف بالبكالوريا فى قلم المحفوظات بوزارة الأشغال ـ كان قد أغلق قلبه وطوى أحلامه.. لم يفكر فى الزواج، ولم يعد يطمح إلى الحب، أو إلى الشهادة العالية. لقد وقفت أمامه العراقيل العائلية والمادية والعلمية، كما وقفت دونها مواهبه الطبيعية، فانطوى على نفسه واستراح إلى اليأس بعد الفشل المكرور، وقد ترك هذا الفشل فى نفسه مرارة لا تمحى، ولون شخصيته تلوينا معينا، ودس فيها عيوبا شتى. ولكنه وقد عجز عن الطموح جعل العزوف عن المطامح سلوته، والترفع عن الوسط طابعه، وآوى إلى مكتبته وكتبه، وهى مثله تمثل جيلا مضى وتعرض مباحث قديمة لا صلة لها بالحاضر وما فيه، فزاده هذا بعدًا عن الجيل، وإيغالاً فى التاريخ!

وحينما انتهى من تعليم أخيه الصغير تعليما عاليا كان قد ناهز الأربعين. كان قد شاخ، فأحس أن الأوان قد فات، وسار فى طريقه يقطع الحياة كالأجير المسخر، منطويًا على نفسه، وقد أورثه الفشل والعزلة طابع التردد والتخوف والحذر من كل خطوة إيجابية، فهو يعيش فى داخل نفسه عاجزا عن تحقيق تصوراته وتجسيم خيالاته.

ولكن القدر الساخر لا يدع الناس يستريحون ـ ولو راحة اليأس المريرة ـ إنه يطلع

على هذا الكهل ـ كما يسميه المؤلف ـ بوجه جميل يلوح له فى النافذة المقابلة. إنه وجه فتاة صغيرة لا تزال طالبة بالمدرسة. إنها تصلح أن تكون ابنته ولكن هذا الوجه يبسم له فيثير فى نفسه كوامن المشاعر النائمة، على حين يدركه حذره وتردده، وخجله من فارق السن السحيق.

وتمضى الأيام وهو فى شغل مقعد مقيم بهذا الحادث الجديد الذى يهز كيانه الضعيف هزا عنيفا متواصلا بين الإقدام والإحجام. ويبدع المؤلف فى تصوير شتى النوازع والاتجاهات فى هذه النفس المعقدة، وفى نفس الفتاة الصغيرة، تلك الأنثى المهيأة لحياة البيت والزواج.

وفى اللحظة التى يكاد يقدم فيها على الخطوة الحاسمة فى حياته، وقد تندى قلبه الجاف، وترعرعت البذور المطمورة فى أعماقه تحت أكداس اليأس والفشل والتردد... فى هذه اللحظة الحاسمة يسخر القدر سخريته العابثة، فيُطلع له فى الميدان منافسا قويا لا يملك منافسته، بل لا يملك حتى أن يشفى نفسه منه بالحقد عليه! إنه أخوه وربيبه «رشدى عاكف» لقد نقل فى هذا الوقت من فرع بنك مصر فى أسيوط إلى المركز الرئيسى بالقاهرة. وإنه لا يعلم من أمر أخيه الكبير شيئا. إنه شاب جسور مغامر بل مستهتر، حاد العاطفة لا يعرف التردد ولا الحذر، إنه الوجه المقابل لصورة أخيه.

وفى اليوم الأول يلمح الوجه الجميل فيستهويه. عندئذ يسلك إلى قلب الفتاة طريقه المباشر فى غير ما حذر ولا تردد، ويقطع الطريق الطويل الذى أنفق أخوه فى قطعه شهورًا... فى يوم أو يومين. فيتصل ويصبح حبيبا ومحبوبا، وفردا من أسرة الفتاة...! وأخوه يتطلع إلى هذا الانقلاب فى دهشة بالغة، وفى ألم كسير وفى يأس مرير، وفى إعجاب كذلك بأخيه الجسور!!

ويقضى الشاب مع فتاته أويقات حلوة، يسكران فيها بكأس الحب الروية، ويقطفان معا أجمل زهرات الحب الجميلة... وذلك ريثما يضرب القدر ضربته الأخيرة، فيمرض الشاب المغامر بالسل نتيجة لإفراطه فى الشراب والسهر والمقامرة مع رفاق حى السكاكينى. ولكنه يمضى فى استهتاره ثقة بشبابه وخشية أن يعلم الناس بمرضه، وأن تعلم من الناس خاصة... هذه الفتاة!

وفى اللحظة التى يلمس الحب الحقيقى قلبه العابث، فيملؤه جدا، ويتوجه إلى اتخاذ خطوة عملية حاسمة، تكون الأقدار قد ضربت ضربتها الأخيرة فيستشرى الداء فى الصدر المسلول، ويذهب الشاب بعد ليلات مريرة من الضنى والعذاب، وبعد أن تبين أن فتاته الحبيبة تخشى منه العدوى، فلا تراه!

ثم تغادر الأسرة الحى فى النهاية... تغادره وقد فقدت الشاب الصبوح، الفتى الجرىء، وقد انطوى قلب عاكف على جرح جديد، بل على جرحين فى جرح. والأقدار تسخر سخريتها الدائبة، ودورة الفلك تمضى إلى مداها. كأن لم يكن قط جرح ولا جريح!!!

* * *

حياة هذه الأسرة وجروحها وأحداثها وأحاديثها هى محور القصة، وقد أدار المؤلف حول هذا المحور حياة أهل القاهرة فى هذه الفترة من فترات الهول أيام الغارات، فعرض منها لوحات بسيطة صادقة تشبه فى بساطتها وصدقها فطرة هذا الشعب الطيب، الفكه، المؤمن، المستسلم للقدر، المتأثر بشتى الخرافات والدعايات، ومن بين الصور التى عرضها صورة مقاهى خان الخليلى و«غرزه» أيضًا. وقد حوت أشكالا وشخصيات لم تكن لتجتمع إلا فى مثل هذا الحى الغريب حقًا، كما رسم صورة مقاهى حى السكاكينى و«شلل» الشبان فيه! وسجل أطوار المقامرين ومجالسهم رسما قويا فى جو مزيج من الجد والدعابة!

ولقد كان هذا الإطار من مكملات الصورة الأصيلة، كما كانت الريشة فى يد المؤلف هادئة وئيدة، فوفق فى إبراز الملامح والقسمات الجزئية، وساير الحياة مسايرة طبيعية بسيطة عميقة، منتفعا إلى جانب مهارته الفنية بمباحث التحليل النفسى دون أن يطغى تأثره بها على حاسته الفنية الأصيلة، وعاشت فى القصة عدة شخصيات، من خلق المؤلف لا تقل أصالة عن نظائرها فى الحياة!

ولكن ليست المهارة الفنية فى التسلسل القصصى، والبراعة الصادقة فى رسم الشخصيات، والدقة التامة فى تتبع الانفعالات... ليست هذه السمات وحدها هى التى تعطى القصة كل قيمتها... إن هناك عنصرا آخر هو الذى يخرج بالقصة من محيطها الضيق، محيط شخصياتها المعدودة، وحوادثها المحدودة فى فترة من فترات الزمان، إلى محيط الإنسانية الواسع، ليصلها هناك بدورة الفلك، وحلبة الأبد....

إنك لتقرأ القصة ثم تطويها، لتفتح قصة الإنسانية الكبرى... قصة الإنسانية الضعيفة فى قبضة القدر الجبار. قصة السخرية الدائبة التى تتناول بها الأقدار تلك الإنسانية المسكينة.

هذه أسرة تفر من هول الغارات وخطر الموت من حى إلى حى. فما تغادر هذا الحى «الآمن!» إلا وقد أصابها الموت فى أنضر زهرة وأقوم عود!

وهذا رجل شاخ قلبه، وانطوى على نفسه، وآوى إلى يأس مرير لكنه هادئ ساكن، فما يلبث القدر أن يثير فى قلبه إعصارا على غير أوان، ويزيح الركام عن البذور المطمورة فى قلبه الهرم، ليعود فجأة فيقصف الأعواد التى تنبت فى بطء وحذر، يقصفها فى قسوة عابثة، وبيد من؟ بيد أحب الناس إليه: شقيقه وربيبه! ولو قد أمهله بضعة أيام لانتهى إلى الواحة الممرعة بعد طول الجدب فى الصحراء. ولو قد تقدم به أيامًا لأعفاه من إضافة تجربة فاشلة إلى تجاربه المريرة؟

وهذا شاب مستهتر عابث، ما يكاد الحب يقوّمه ويبعث فيه الجد والمبالاة حتى يخطفه الموت الذى لم يخطفه أيام العبث والاستهتار.

والأرض تدور، والزمن يمضى، والناس يقطعون الطريق المجهول كأن لم يكن شىء مما كان: رفاق الشاب فى قهوتهم يقامرون ويعربدون، وأصحاب الرجل فى غرزتهم يدخنون أو فى قهوتهم يتندرون. والقدر الساخر من وراء الجميع لا يبدو عليه حتى مظهر الجد فى سخريته المريرة. والمؤلف نفسه لا يكاد يلتفت إلى الدائرة الوسيعة التى تنتهى إليها قصته، لأنه يلقى انتباهه كله إلى إدارة الحوادث ورسم الشخصيات!!

* * *

ولعل من الحق حين أتحدث عن قصة «خان الخليلى» أن أقول: إنها لم تنبت فجأة، فقد سبقتها قصة مماثلة، تصور حياة أسرة، وتجعل حياة المجتمع فى فترة تقرب إطارًا للصورة... تلك هى قصة «عودة الروح» لتوفيق الحكيم.

ولكن من الحق أيضا أن أقرر أن الملامح المصرية الخالصة فى «خان الخليلى» أوضح وأقوى، ففى «عودة الروح» ظلال فرنسية شتى. وألمع ما فى «عودة الروح»

هو الالتماعات الذهنية، والقضايا الفكرية بجانب استعراضاتها الواقعية، أما «خان الخليلى»، فأفضل ما فيها هو بساطة الحياة، وواقعية العرض، ودقة التحليل.

وقد نجت «خان الخليلى» من الاستطرادات الطويلة فى «عودة الروح» فكل نقط الدائرة فيها مشدودة برباط وثيق إلى محورها الأصيل.

وكل رجائى ألا تكون هذه الكلمات مثيرة لغرور المؤلف الشاب المرجو ـ فى اعتقادى ـ لأن يكون قصاص مصر فى القصة الطويلة. فما يزال أمامه الكثير لتركيز شخصيته والاهتداء إلى خصائصه، واتخاذ أسلوب فنى معين توسم به أعماله وطابع ذاتى خاص تعرف به طريقته.

وبعض هذه الخصائص قد أخذ فى البروز والوضوح فى قصصه السابقة وفى هذه القصة، وهى الدقة والصبر فى رسم الخوالج والمشاعر وتسجيل الانفعالات المتوالية، والبساطة والوضوح فى رسم صورة لحياة أبطاله.

والبقية تأتى إن شاء الله!